عفو الملك أسركاف

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب نجيب محفوظ

كان الملك أسركاف من أجل ملوك الأسرة الخامسة الذين حكموا مصر حكماً اقترن فيه العدل بالرحمة والحزم بالكياسة والقوة بالمحبة ، وكان من سياسته — لدى أول عهده بالجلوس على العرش — أن عبأ جيشاً قوياً زحف به على الصحراء الغربية ليقضى على شوكة القبائل الرحالة التى أطمعها ميل الملوك السابقين إلى السلام — فى نهب القوافل وسلب قرى الدلتا والاعتداء على الآمنين ، فانتصر عليها انتصاراً مبيناً وشتت قواها ورجع من غزوته بجيش من الأسرى وأثقال من الغنائم ، ووطد بذلك سلطانه وفرض هيبته وأعلى كلمة مصر وكفى أهلها شر القبائل المتوحشة ، والتفت فى ظل السلام والطمأنينة إلى حالة البلاد الداخلية وأولاها عنايته وحبه ، فشق الطرق وحفر الترع وأقام لنفسه هرماً منيعاً فى أسوان عاصمة ملكه ، فكان عهده عهد أمن ورخاء وتعمير ، وعاش الملك بين شعبه المجيد سعيداً مطمئناً يثلج صدره ما يجد من حب رعيته له ويسعد أيامه ولياليه ما يلقى من إخلاص نفر من كبار رجاله يتفانون فى محبته ؛ وكانوا له نعم المولى ونعم الصديق ، من هؤلاء سحورى ابنه وولى عهده ، وحروري رئيس وزرائه ، وسمن كبير كهنة الرب خنوم ، وسمنرى القائد العام للجيش المصرى

وكان من عادة الملك الصالح أن يذهب كل صباح إلى معبد خنوم للصلاة والعبادة ، وفى ذات مرة دخل إلى قدس الأقداس وخلا إلى تمثال الرب ولثم قدمه ثم صلى صلاة حارة وشكر الرب كثيراً وعدد آلاءه ونعماءه وختم صلاته بقوله : « الحمد لك يا أبى خنوم لما أوليتنى من حب الناس وإخلاص الأصدقاء فان حب المخلوق من رضا الخالق ، وليس أسعد فى الدنيا ممن تسعد القلوب لسعادته وتشقى لشقائه »

ولأن الناس فى تلك الأزمان كانوا يعبدون الآلهة بقلوب ملؤها الاخلاص والايمان والسذاجة فقد كانت الآلهة تكرمهم بالحديث تارة وبالمعجزات تارة أخرى ، ولذلك لم يكن من الغريب أن يسمع فرعون صوتاً سماوياً يقول له :

— لقد منحتك حكمة أيها الملك فلماذا تطمئن إلى الناس كل هذا الاطمئنان ؟

فعجب الملك لقول الرب ودب القلق فى قلبه فقال فى فنوت وخشوع :

— أيها الرب المعبود ... لقد خدمت شعبى باخلاص فصدقنى الحب ، ووفيت لأصدقائى فحق عليهم الوفاء لى ، فكيف يجوز لى أن أدع للريبة نفقاً إلى نفسى ؟

فقال الصوت السماوى الذى يجل عن الوصف والشبيه :

— أنظر إلى الشجرة المورقة التى تملأ الجو بالأغصان وتتلفع بالخضرة اليانعة كيف يفىء الناس إلى ظلها الممدود يحتمون به من أشعة الشمس ويقطفون ثمارها الدانية ، وانظر إليها إذا جرد

الشتاء عليها الرياح الباردة فتساقطت أوراقها وذبلت أغصانها وتمرت كئبة بالية لم يصنها تحنيط ، كيف يهجرها الناس ويقطعون أغصانها ليلقوا بها فى النيران ... !

وعاد الملك إلى قصره حزيناً كئيباً يستعيد ما قال الرب ويتأمل فى معانيه ، فيوسوس الشك فى صدره ويرين القلق على قلبه ، ومضى يستحضر ذهنه الوجوه العزيزة التى عاشرته الأعوام الطويلة فى مودة وصفاء — لأول مرة — فى هالات من الريبة تكشف خلف أحاديثهم الرقيقة عن أكاذيب معسولة وتستشف وراء ابتساماتهم رياء مقيتا وترى فى فروض الطاعة التى يلتزمها أثراً للرهبة والخوف ، وطغت موجة عارمة من سوء الظن على نفسه فجعل يرجع إلى الماضى السعيد المنطوى بأعاخ صفحاته الناصعة بقاذورات الظنة والشك فبدت له حياته التى آمن يوماً بأنها سلسلة من السعادات غفلت عنها عين الأقدار ... خدعة نكراء وشقاء قابعاً خلف قناع سعادة زائفة

وفطن الأمير سحورى إلى حالة الملك الغريبة فتبلبل فكره وركبه الهم وسأل أباه عما يكدر صفوه وكان الأمير يحب والده حب عبادة ، وكان الملك يحب ابنه كأعز شىء فى دنياه ، ويثق به ثقته بنفسه فبثه حزنه ، وأفضى إليه بمخاوفه ، وروى له حديث الرب ختوم . واستولى الارتباك على الأمير ولم يدر كيف يطرد عن أبيه أشباح الشكوك ، وكان الملك لا ينقطع عن التفكير فقال لولى عهده :

— أنا لا أستطيع التنكيل بالمنافقين مالم يقم لى الدليل المحسوس على نفاقهم وقد اهتديت إلى طريقة أكشف بها عن خبيئة نفوسهم فاصغ إلى يابنى .

سأقوم من الغد برحلة إلى بلاد بنت ، فتول أنت مهام الدولة فى أثناء غيبتى ، وانتظر أياماً ثم أعلن نفسك ملكاً على وادى النيل ، وأطمع صحابتى فى جاهك ومالك وعدهم ومنهم كى يخفضوا لك جناح الذل والطاعة ولنر ماذا يكون من شأنهم ...

ولكن قلب الأمير نفر من تدبير فرعون واحتج قائلا :

— أضرع إليك يامولاى ألا تحملنى على موقف أشهر به عقوقى على العالمين ! وألا ترضى بغيبة طويلة تحرم قلبى من طمأنينته وتسلب الشعب سهرك عليه وعنايتك به .

ولكن الملك أثنى على عواطفه وبدد مخاوفه وحمله على الرضوخ والاذعان وذهب إلى الملكة الشابة ماي — وهى غير أم ولى العهد التى ماتت منذ عهد بعيد — فودعها كما ودع كلبه الحبيب زاى ، ثم ركب سفينة تجارية أبحرت به إلى بلاد بنت المقدسة منبت البخور العبق ؟ وعاش عهداً غير قصير يتنقل بين وديانها الخصبة فيلقى الاكرام والترحيب اللذين كان يقابل بهما رعايا فرعون أينما حلوا وحيثما نزلوا ... وكان لا ينفك يفكر فيما عسى أن يلقاه من رعيته وصحبه حين أوبته وكان كلما لج به سوء الظن وأورده مهالك الأوهام والهواجس فر إلى جميل الذكريات المنطوية يستدر ثقتها ويستلهمها الصبر والطمأنينة ، فلما أن ضاق صدره بالقلق والوساوس وغشيت قلبه وحشة الغربة عزم على العودة إلى وطنه فجمع متاعه القليل وأبحر على ظهر سفينة مصرية أرست به على شاطىء الأرض التى أفنى زهرة عمره فى سبيل إسعادها ، وقصد من توه إلى أقرب قرية واختلط بأهلها وهو فى ثياب

الغربة حتى أنسوا به فسأل جماعة منهم يوماً قائلا :

— من ملككم أيها الرجال ؟

فأجابه شاب لفحت الشمس وجهه وفتل الفأس ساعديه .

— المبارك اسمه سحورى

فسأله الملك :

— وكيف ترونه ؟

فقال الشاب بحماس أمن عليه رفقة ؤه :

— هو ماؤنا إذا النيل نضب وساعدنا إذا اشتد الخطب وادلهم

فسأله الملك :

— فكيف تذكرون أسركاف ؟ فقال :

— بالخير لولا أنه فى ميدان وملكنا فى ميدان

فتنهد الملك وسأله بصوت حزين :

— كيف خذلتموه وقد كان لكم نعم المولى ونعم النصير ؟

فحدجه الشاب بنظرة قاسية وقال له وهو يوليه كشحه .

— إن العصيان شر لعنته الآلهة ...

فهجر الملك القرية حزيناً وسار إلى النيل إلى عاصمة ملكه ، وولى وجهه شطر معبد خنوم وطلب مقابلة الكاهن الأكبر ممن فدعى إلى المحراب ولما رآه الكاهن عرفه بالرغم من ثيابه الغريبة فبدت عليه الدهشة وتولاه الانزعاج وهتف بصوت مبحوح :

— مولاى الملك أسركاف

فابتسم الملك ابتسامة مريرة ساخرة وسأله كالمفكر

— كيف تدعونى بمولاك الملك وقد باركت بالأمس عاصيا عاقا اغتصب عرشى ؟

فاضطرب الكاهن وزاغ بصره وقال بتلعثم :

— مولاى ، وما عسى أن يفعل رجل ضعيف مثلى لم يعد للقتال ؟

— ليس القتال فريضة على كل إنسان ولكن الوفاء واجب محتوم على كل رجل فاضل ، فكيف تخلد إلى خدمة من غدر بمولاك وولى نعمتك ؟

واشتد الارتباك بصديق الملك القديم واعتلته حيرة ، فلم يحر جواباً ، فقال فرعون :

— تستطيع يا سمن أن تكفر عن ذنبك بأن تعلن على الملأ عدم شرعية ولاية ابنى سحورى فتقدم إلى خدمة بطعمنى فى أدائك لما ماعهدته فيك من الوفاء فى عهد مضى

ولكن الكاهن ذعر وارتعب وقال بتضرع :

— لا أستطيع يامولاى ... إن واجبى خدمة الرب لا خلع الملوك

فصمت الملك لحظة يطارد بعينيه المستعرتين عينى الكاهن اللتين تتحاشيان النظر إليه ، ثم ولاه ظهره دون أن يزيد وترك المعبد كئيب النفس ضيق الصدر يمض أنامله حسرة وأسفا

وأسرع الخطى إلى قصر رئيس الوزراء حرورى وطلب الاذن بمقابلته ولكن الخدم احتقروا هيئته الزرية فهموا بطرده فتوسل وتضرع فما زادوا إلا استكبارا فقال لهم إنه صديق الوزير وسمى لهم اسما يعلم أنه من المقربين ، فأذن له بالدخول وما إن وقع نظر الوزير على القادم حتى فزع قائما وقد أثلجت أطرافه واتسعت حدقتا عينيه وصاح بلا وعى :

— مولاى

فقال الملك بهدوء :

— طيب الرب أوقاتك أيها الصديق حرورى

فاستولى الهلع على قلب الوزير وسأل مليكه السابق فى لهفة :

— هل رآك أحد وأنت تدخل بيتى ؟

فغطن الملك إلى الباعث على هذا السؤال وبدأ يستشعر اليأس والقنوط فقال :

— نعم أيها الصديق رآنى الخدم وجمع غفير ممن يجتمعون ببابك

فسأله بصوت بحه الفزع :

— وهل عرفك منهم أحد ؟

فقال الملك :

— لا أدرى

فصاح الوزير :

— واضيعتاه لو علم الملك بزيارتك لقصرى

— وهل تخاف هذا الغاصب العاق ؟

— كيف لا ؟ أتوسل إليك أن تغادر قصرى من الباب الخلفى

— أو تطردنى أيها الصديق حرورى ؟

— معذرة يامولاى ، إن ظرفى دقيق وإنى أضرع إليك باسم صداقتنا القديمة

فضحك فرعون ساخراً ، ورأى رئيس وزرائه فى حالة من الهلع يرثى لها فلم يجد به من فائدة ترجى ولم ير بداً من مغادرة القصر من حيث أراد صاحبه فغادره وقد اعتلاه الحزن وران على صدره الندم...

ولم يبق من أصدقائه سوى القائد سمنرى ، وبالرغم مما حل به من الفشل لم يقو سوء ظنه ومرارة نفسه على زعزعة ثقته به لأنه كان رجلا شهما باسلا وعظيم الاخلاص ، ميزته الأرباب بطبع لاتطمع فيه الخيانة ولا الدنايا، فقصد إليه ببقية أمل وطلب الاذن بالدخول عليه . ولما وقعت عليه عيناه حن قلبه إليه فصاح به وهو يفتح ذراعيه له :

— أيها القائد سمنرى ... ألا تذكرني ؟

وبهت القائد وقام واقفا منزعجاً وقال بدهشة :

— مولاى الملك أسركاف

فقال فرعون برجاء :

— نعم هو بذاته وبؤسه وأسفه

ولم ير القائد ذراعى الملك المفتوحتين وبدت على وجهه آى الصلابة والشدة ، فسأل مليكه السابق بجفاء قائلاً :

— هل يعلم جلالة الملك بدخولك مملكته ؟

فبهت أسركاف وسقطت ذراعاه فى خيبة مرة وقال باقتضاب :

— كلا

فسأله القائد بلهجة أشد من الأولى :

— وماذا جئت تفعل فى مصر ؟

فقال الملك :

— جئت أستصرخ أصدقائى القدماء

فتقدم القائدمن فرعون وقال بلهجة عسكرية :

— إن واجبى كقائد للجيش المصرى يقضى على بأن ألقى القبض عليك باسم الملك

فقال له أسركاف :

— ألا تعلم أنى أنا الملك الشرعى . فقال القائد وهو يضع يده على كتفه :

— إن لمصر ملكاً واحداً لا أعرف سواه

وأيقن فرعون بعبث الجدل فاستسلم للقائد وترك له نفسه يسير به إلى القصر الفرعونى ودخل القائد إلى بهو العرش يسوق بين يديه الملك ، ورأى أسركاف ابنه جالساً على عرشه ومن حوله رجال مملكته وعلى رأسهم حرورى وسمن فعلم أنهما بادرا

إلى الثول بين يدى مولاهم لينبأه بظهوره ، وحمد فى نفسه مجيئهما ليشهدا ويشهد معهما القائد صموده إلى عرشه وتسلمه الأمانة التى أودعها يدى ابنه الأمينتين فيذوقوا جميعاً مر الخزى والعار وتذهب نفوسهم الخبيثة حسرات وتتقطع ندما ...

ونظر الملك إلى ابنه وابتسم إليه ابتسامة ذات مغزى عظيم وهم بالكلام لولا أن سمع نباح كلب عالياً ورأى زاى يتخطى صفوف الحرس ويهرع إليه بقوة لا ترد ويشب عليه بيديه ويوسعه حنيناً دل على الجوى والشوق ، وما استطاع أن يهدئ ثائره ويطيب خاطره إلا بعد جهد جهيد، وغلب التأثر على الملك فتقدم إلى عرشه بخطوات ثابتة حتى أوقفته أيدى الحرس ، فاستولى عليه العجب ونظر إلى ابنه وقال:

— قم يا بنى فقد انتهت تجربتى ودعنى أمثل بهؤلاء المنافقين

ولكن ابنه لم يقم ولم يتخل له عن مكانه وقال له بعظمة السلطان :

— ماذا جئت تفعل هنا أيها الرجل الذى أعطته الآلهة ملكا واسعاً فتهاون فى حقه وذهب يلهو فى بلاد بنت ؟

فوقع قول الابن على أبيه وقوع القضاء، فاتسعت عيناه وجرت فيها الدهشة والجنون وجعل يقلب وجهه الذاهل بين ابنه المتعجرف ورجاله الشامتين.

ولم يصبر عليه ابنه فقال له بقسوة :

— يحق لى الآن أن أفصل رأسك عن جسدك ولكنى لا أنسى أنك أبى ولا أحب أن أرتكب تلك الجريمة التى تستنكرها تقاليدنا فأوسع لك من صدرى صبراً وأمهلك يوماً تعد فيه عدتك ومن ثم تنفى إلى بلاد النوبة ...

وأثنت الحاشية على بر الملك ولهجت ألسنتهم له بالدعاء ؛ أما أسركاف فقد اشتد عليه البلاء حتى ألجم منه اللسان وشلت الأعضاء ، وكان زاي قد أحس بأله فجعل ينبح ويتحسس عباءته التى عفرها التجوال

وأفاق الملك إلى نفسه فثار على ضعفه وتمالك زمام نفسه وقال لابنه :

— والملكة تاى ؟ . فقال له ابنه :

— هى الآن ملكة مصر السعيدة

فتنهد الملك وقال :

— هل أطمع فى أن تأذن لى فى اصطحاب زاى ؟ فقال :

— لك هذا فقد ضايقنا بنباحه !

وغادر الملك أرض مصر ملوماً محسوراً يقلب كفيه من الألم والحزن وسوء المصير وولى وجهه شطر الجنوب يتبعه كلبه الأمين وحط فى بلاد النوبة وعاش بين جبالها فى عزلة رهيبة لا يكلم إنسيا، فاذا ثقل عليه الهم والألم بث شكواه المخلوق الوحيد الذى صدقه الحب ومحضه الوفاء واحتمل وحشة العزلة صابراً من أجله

ولم يدعه حاكم النوبة المصرى فى عزلته طويلا فزاره ودعاه إلى زيارته ولم يخف عنه المودة والاكرام وما لبث الملك أن اكتشف خبيئة نفسه فوجده حاكما متذمراً يرى منصبه فى بلاد النوبة غبنا له وسوء تقدير لخدماته ومؤهلاته . فالتمع فى قلب الملك بارق أمل فاستغل سخط الحاكم ووعده ومناه حتى حمله على تجريد حملة من النوبيين والمصريين، سارا على رأسها صوب الشمال ، وأعد الملك سحورى جيشا لتأديبهما والتحم الجيشان فى معركة فاصلة حالف

النصر فيها الملك أسركاف فدخل عاصمة ملكه فاتحاً وقبض على ابنه وأصدقائه القدماء وأودعهم غيابات السجون ...

ولما علمت الملكة تاى بانتصار جيش زوجها السابق تولاها الخوف فقتلت نفسها وفوتت على الملك فرصة الانتقام منها ، على أن الملك لم يرض أن يبت فى أمر من الأمور ولا أن يقرر مصير أحد من أسراه إلا حين يسكت عنه الغضب وتهدأ نشوة الانتصار فى نفسه ويجد فرصة طويلة للتروى ومهلة للتفكير . وسهر ليلة طويلة يفكر ويديم التأمل حتى اهتدى إلى رأى ...

وفى الصباح أمر بابنه وصحبه فجىء بهم إلى عرشه وكانوا جميعاً منكسى الذقون زائغى النظرات ترهقهم ذلة ويشملهم قنوط . فتأملهم الملك ملياً وعلى شفتيه ابتسامة غامضة ثم قال بهدوء عجيب :

— لقد عفوت عنكم جميعاً

فاستولت عليهم الدهشة ولم يصدقوا آذانهم ونظروا إلى الملك الجالس على عرشه بتهيب وتبادلوا نظرات التعجب والحيرة وعدم التصديق ، فقال الملك بهدوئه العجيب :

— إنى أعنى ما أقول أيها السادة ، لقد عفوت عنكم فعودوا إلى مناصبكم وباشروا أعمالكم بالهمة والاخلاص للذين عهدتهما فيكم

ولم يستطع حاكم بلاد النوبة صبرا فقال :

— أتعفو يا مولاى عمن اغتصب عرشك وطردك من مملكتك بلا رحمة ؟ أتعفو عنهم يامولاى وما يزال عالقا بأرديتهم أثر الدم الذى سفكوا فى قتالك ؟

فابتسم الملك وقال بتهكم :

— من لى بولى عهد جديد ؟ ومن لى بكاهن أتقى من ثمن أو وزير أقدر من حرورى أو قائد أبرع من سمنري ؟ بل يا ليت الملكة تاى لم تسارع إلى القضاء على نفسها إذاً لأجلستها إلى جانبي على هذا العرش مرة أخرى ، أما الاخلاص أيها الحاكم فقد أمسيت أسىء الظن بجميع البشر ؛ ولست أعظم ثقة بك نفسك منى بهؤلاء ، وإن جميع الناس ليأوون إلى ظل الشجرة المورقة فاذا عراها جدب الشتاء هجروها غير آسفين ، ولن يجدبنى قتل هؤلاء فتيلا كلا ولن يبدلنى بهم من هم خير منهم

وعاش الملك أسركاف بقية عمره فى عزلة قلبية لا يؤنس وحشتها قصر آبو ولا الجم الغفير من الشعب والحاشية اللهم إلا زاى الصديق الأمين !

نجيب محفوظ

التصوف الاسلامى
فى الادب والاخلاق

بقلم الدكتور زكى مبارك

يقع هذا الكتاب فى مجلدين كبيرين وثمنها معاً أربعون قرشاً ، وهو يطلب من المكاتب الشهيرة فى البلاد العربية ويطلب بالجملة من مطبعة الرسالة